

الجمهورية التونسية  
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي  
جامعة قابس  
المعهد العالي للغات بقابس



قسم اللغة العربيّة

أعمال الندوة الدوليّة الرّابعة:

# العربيّة وسؤال القيمة

الملتئمة بالمعهد يومي الثلاثاء والأربعاء  
23 و24 نوفمبر 2021

بحوث محكمة

إعداد وتنسيق ومراجعة: الصّحبي هدوي

تقديم: الأستاذ محمّد الصّحبي البعزوي

❖ اللّجنة العلميّة: الأساتذة:

- الشاذلي الهيشري، كليّة الآداب والفنون والإنسانيات بمتّوبة، تونس.
- منجّيّة عرفة منسيّة، المعهد العالي للّغات بتونس.
- علي الصّالح مولى، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بصفافس، تونس.
- محمّد الصّحبي البعزاوي، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بالقيروان، تونس.
- سمير السحيمي، كليّة الآداب والفنون والإنسانيات بمتّوبة، تونس.
- محمد الصّالح البوعمراني، المعهد العالي للدراسات التطبيقية في الإنسانيات بقفصة، تونس.
- عبد المالك بلخيري، كليّة الآداب، جامعة الجلفة، الجزائر.
- منجي العمري، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بالقيروان، تونس.
- وسام العربي، كليّة الآداب والفنون والإنسانيات بمتّوبة، تونس.
- الحسيني غابري، المعهد العالي للّغات بقابس، تونس.
- منجي القلّفاط، المعهد العالي للّغات بقابس، تونس.
- كمال الزّيتوني، المعهد العالي للّغات بقابس، تونس.
- سليم العمري، المعهد العالي للّغات بقابس، تونس.

العربية وسؤال القيمة

## الأرضة العلمنة للندوة:

يظل سؤال القيمة ببعديه الإستمولوجي النَّدي أو الإيتيقي من أبرز الأسئلة التي تستوجب الطرح باستمرار لاقرانه غالباً بأزمة ما تهدد الوجود الإنساني. وعادة ما تطرأ على البنات الخطابية والاجتماعية والثقافية والفنية زمن الأزمة تحولات يعسر توصيفها وتقويمها إستناداً إلى مناهج ومفاهيم جعلت أصلاً لاستقراء وقائع وأوضاع مختلفة. وفي ضوء المتغيرات الكونية التي تحدث تقاطعات بيّنة بين مكونات الحضارة الإنسانية نلاحظ حضور مفهوم القيمة بقوة في منابر الحوار الموصولة بمختلف تلك المكونات، ولعل ما جدّ وما يجدّ بسبب وباء كورونا المستجد (كوفيد 19) خير دليل على ذلك، فقد كشفت مثل هذه الظروف عن مركزية القيمة في النشاط الإنساني، وأكدت الحاجة إلى مراجعة صلتنا بهذا المفهوم من أجل إعادة تشكيله في وعينا الذاتي والجماعي على حدّ سواء، وبالتأكيد فإنّ البحث في قضية قديمة جديدة لن يكون هيئنا سواء من حيث الإحاطة بالمسألة معرفياً أو من حيث بسط السبل لإجراء المفهوم تطبيقاً.

وحدّ القيمة ذاته موكل إلى حقول معرفية بعضها شديد التباعد بحيث قد لا نقوى على تجسير الهوة بينها إلا بتفعيل مناهج بحث مستجدة من قبيل الدراسات البيئية، فالقيمة قضية عابرة لتلك الحقول، إذ هي قضية مطروحة في الفلسفة، والمنطق، والرياضيات، وفي الاقتصاد، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، واللسانيات، والتداولية، والنظم التعليمية، وفي الجماليات والفن ولا سيما الأدب شعراً ونثراً...

ولا مرية في أن تكون الطروحات مختلفة وربما متباينة بين حقل معرفي وآخر، بل وحتى داخل الحقل الواحد حيث تعدّد التصورات والنظريات والمناويل أحياناً بعدد الباحثين والمفكرين وأصحاب النظر، واختلافها باختلاف الحقب التاريخية والعصور الإستمولوجية، منذ النظريات الأولى حتى اليوم.

وقضية القيمة قديمة قدم الإنسان، ولكن يمكن التأصيل لها معرفياً بأنها قضية فلسفية بالأساس موصولة بالبحث في الخير والحق والجمال، ارتبطت في الفلسفة الإسلامية مثلاً بشيء من الموروث القيمي لفلسفة الإغريق استلهم منه ابن رشد فلسفته في الأخلاق ووافق أفلاطون في اعتبار الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة هي الفضائل الأساسية، وعلى أساس منه بنى الفارابي تصوّره للمدينة الفاضلة التي يحكمها نبي إمام تساوفاً مع أصول قيم الإسلام. وحدثت في الفلسفة المعاصرة من خلال علاقتها بالوجود اتصلاً وانفصالاً؛ فبدت مع لافيل (1883-1951) Louis Lavelle وفورست (1898-1983) Aimé Forest مثلاً سمة مميزة له، فيما عدّها جول لانيو (1851-1894) «الواقع المطلق الذي نبحت عنه»، وقدم رالف بارتون بيرى (1876-1957) R.B.Perry «النظرية العامة للقيمة» معرّضاً لفلسفة القيم ونظرية في حضارة الإنسان ضمن الفلسفة الواقعية الجديدة... بينما لا تعدو قيمة كلمة أو عبارة ما في علم المنطق دلالتها الحرفية أو الضمنية، وأمّا في الرياضيات، فليست إلا تعبيراً رقمياً يحدّد مجهولاً أو يمثّل حالة متغيّر. أمّا في علم الاجتماع فغالباً ما تحدّد بما يفضّله الناس من الخصال في ثقافة ما عصاراً لظروف الاجتماع، وتتسم بالشمولية لتكون بمثابة المبدأ العام. وأمّا في علم النفس، فهي أحد مكونات الشخصية المؤثرة في سلوكيات الفرد وعلاقاته وتوجهاته.

وأما في اللسانيات، فقد بين دي سوسير «أنّ اللغة لا يمكن أن تكون إلا نظاماً من القيم المحض» وتساءل عن إمكان الترادف بين قيمة الكلمة تستمدّها من تمثيلها لفكرة ما وبين الدلالة، وانتهى إلى أنّهما مختلفتان. وأمّا في المقاربة التداولية فقد ارتبطت القيمة مع سيرل مثلاً بالوعي؛ «فإذا قيّمنا الحياة والعدل والجمال والبقاء والتفاعل فإنّنا نقيّمها فقط بوصفنا كائنات واعية»، وتتصل في أدبيات نظرية المجاملة politeness theory ضمن التداولية الاجتماعية بمفاهيم

عامّة كالتأدّب والتخلّق واللباقة وبأخرى خاصّة كالوجه the face موجبا وسالبا، أو بمفاهيم تمسّ علاقة الأعمال اللّغويّة بالغاية الاجتماعيّة كالتنافسيّة وأدب التّرحيب أو المناصرة والدّعم والصّراع. فيما يمكن أن نتحدّث مع البلاغة الجديدة عن القيمة الحجاجيّة التي يستحيل بها أيّ خبر عاديّ قولاً مؤثّراً أو مقنعا قد ينتهي إلى تغيير رأي أو سلوك، أو تعديله، هذا فضلا عمّا جاءت به اللّسانيات العرفانيّة بخصوص الاستعارات التي لا تعدو كونها بنية تصوّرية قد تكون لها حسب لايكوف وجونسون «قوّة في تحديد الواقع» تطرح بخصوصها مسألة الصدق باعتبار ما له من «قيمة حيويّة»...

وفي الجماليات والفنون، ولا سيما الأدب، سخّر الشعر منذ القديم آلياته الخطابية لترسيخ منظومة قيمية معينة، فاستهدف شعراء الجاهلية مثلا مجموعة من القيم تدور أغلب تفاصيلها حول مفاهيم مختزلة لتواليات المعاني الشعريّة من قبيل الفتوة والمرّة، والصّعلة وغيرها؛ وفي النثر القصصي احتفت نصوص كثيرة بالقيمة احتفاء صريحا حتّى صارت مناهل للاغتراف من معتقها، وباتت علاقتها بها رمزيّة شأن القيم المؤسّسة لصالح الملك والعمران في كليلة ودمنة، أو قيم الحبّ في طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي، أو أصبحت موجّهات لتلافي أراذلها مثل قصص البخلاء للجاحظ أو أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي... وغير ذلك كثير، بل قد لا نجد أثرا أدبيا يقطع مع القيمة إغراء بمحمودها أو تحذيرا من رذيلها. وفي العصر الحديث شاعت مفاهيم مثل "القيمة المهيمنة" مع الجيل الثّاني للشكلايين الرّوس بحيث لا تعدو تلك القيمة أن تكون بؤرة الأثر الأدبي المحدّد لجنسه، وعدّ الشّعْر لدى رومان جاكبسون نظاما من القيم المنتظمة في تدرّج مخصوص من العليا إلى السفلى تتخلّلها القيمة المهيمنة التي على أساسها نفهم الشّعْر ونفكّ شفراته، كأن تكون الوزن أو القافية أو الصّورة أو التّبر... وكلّ منها قابل لأن يستقلّ بالدّرس.

وأما من المنظور الدّيني فقد وصف القرآن الدّين بالقيم أو القيم: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قَيْمًا﴾ حيث القيمة هي تمام الاستقامة ودرء الاعوجاج خُلقا وسلوكا تماهيا مع جوهر التدين الموصول بالتقوى المحققة أبدا لخيريّة المؤمن. ولا تقلّ القيمة منزلة في سائر الشّرائع والأديان، فهي محور تعاليمها عموما...

وبناء على ما عرضناه تنبها إلى سعة القول في القيمة باعتبارها قضية عابرة للمعارف اتّضح لنا أنّ طرح سؤال القيمة على الباحثين بمختلف تخصّصاتهم يمثّل فرصة لمناقشتها من زوايا نظر مختلفة تؤدي حتما إلى تشكيل مسترسل من وجهات النّظر المتفاصلة حين المتشابهة حيناً آخر في تدامج قد لا تبين خيوطه الناظمة إلا عبر تفاعل وجهات النّظر تلك وما يؤلّفها من أفكار. علما أنّنا نروم الانتهاء إلى اختبار قدرة العربيّة لغة وأدبا وثقافة في الاستفادة من التطوّر الهائل للمنظومات القيمية اليوم ونتائجها في ضوء عالم متغيّر لا تهدأ حركة تغييره. ونسعى إلى فتح آفاق لنقاش يقصد إلى مراجعة قضية القيمة باعتبارها قضية إنسانية عامّة تتداخل في طرحها حقول معرفية وتخصّصات مختلفة، ويسعف بفهم الخيط الناظم لمختلف المفاهيم الموصولة بمصطلح القيمة وتفسير التوارد الغزير للمفاهيم على هذا المصطلح بشكل لافت للنظر رغم التباعد الظاهر بين التخصّصات التي تستعمله وتنبّاه، كما يرمي إلى فكّ الالتباس عن قيمة القيمة في العلوم الإنسانية، وتوضيح دورها في تجسير الهوة بين تبني الآراء والتصورات من جهة وإجرائها العملي من جهة ثانية، ورفع الإبهام عن مفهوم القيمة وعلاقته بمفاهيم مجاورة كثيرا ما اختلطت به كالمثل والأخلاق...، فضلا عن فهم التجليات المختلفة للقيمة، وتعدّد الأفهام المقترن بتعدّد مجالات التفكير، وسبل الاستفادة من ذلك، واكتشاف حظّ القيمة من بناء الخطابات على اختلافها: أدبي، علمي، تربوي تعليمي، سياسي، إعلامي...

تقديم كتاب:

العربية وسؤال القيمة

محمد الصّحيّ البعزاوي

مدير مدرسة الدكتورا

كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة القيروان

ليس الحديث عن الألسنة أمرا هيّنا وهو أبعد ما يكون عن اليسر وقرب التناول إذا اقترن الاهتمام باللسان باعتباره حاملا ثقافيا بمفهوم "القيمة" وما يطرحه من قضايا في علاقة بتقدير الأشياء وتمثلها. فالألسنة وإن كانت بمستوياتها المختلفة أدوات تواصل تسمح لمستعملها بمجاوزة مظاهر سوء التفاهم عموما، فإنّ قيمتها الأساسية قد لا تنخزل في تلك الوظيفة ولا تقتصر عليها. بل إنّ النّظر في قيمة اللسان من خارج وظيفته التواصلية المتمثلة في قدرة المتكلم والمخاطب على استعماله إنتاجا وتلقيا قد فرضها التطور الاجتماعي والثقافي للمجموعات البشرية وأقرها التطور التكنولوجي والحاجة الماسة إلى نقل العلوم والمعارف. فالألسنة وإن كانت موحدة في تعيينها الأشياء وفي تمكين مستعملها من التعبير بها عن أغراضهم في المقامات التواصلية المختلفة، تتفاوت تفاوتًا قد يزيد وقد ينقص متى تعلّق الأمر بوصف المعارف وتعيين المصطلحات العلمية المتصلة بها. وبين المشترك الموحد والمختلف المتعدد تتجلى قيمة لسان ما في علاقته بباقي الألسنة وتعدد تلك القيمة، بقطع النّظر عمّا قد يحدثه ذلك من مفاضلة أو مفاخرة، بمجرد مجاوزة الوظيفة الاجتماعية إلى ما قد يحققه اللسان من وظائف علمية وأخرى تعليمية.

في هذا السياق يمكن الحديث عن التلازم القائم الذي عقده المشرفون على ندوة قسم العربية بالمعهد العالي للغات بقابس بين "العربية" و"القيمة". ومع أنّ "القيمة" من المفاهيم العابرة للاختصاصات في مختلف المنظومات العلمية والثقافية وأنه وسيلة الباحث المتخصّص وغير المتخصّص في الحكم على الموضوعات وتقديرها من حيث قيمتها أو من حيث مرجعياتها الاجتماعية والثقافية والأخلاقية والفنية...، فإنّ مساءلة العربية من حيث قيمتها قد يساهم في تحديد مجال التفكير فيها على اتساعه ويخصّص النّظر في فوائدها الثقافية والاجتماعية والعلمية. بل إنّ التفكير في قيمة اللسان يجعلنا نجاوز النّظر إليه باعتباره وظيفته الاجتماعية إلى البحث أيضا في مكوناته العميقة بفهم ما يميّز به من خصوصية في ظلّ التنوّع الثّقافي والتعدّد العرقي والاختلاف الديني.

لقد مثّل سؤال القيمة في علاقته بالعربية مدخلا إضافيا للنّظر في العربية من وجهة نظر معيارية فضلا عن التّعامل معها وصفيًا. فالاهتمام في الدّرس اللّساني الحديث ببناء المناويل الناجعة في وصف الألسنة الطبيعية في مستوياتها المختلفة بدءًا بالوحدات الصوتية المفيدة وتوليقاتها وترتيبها بالنّظر إلى ما يميّز به كل لسان من خصائص، والتعمّق في الفرضيات التي تبنتها وفي القوانين المسيّرة لاستعمالها لم يحل، كلّ ذلك، دون تعامل عدد من اللّسانيين وكثير من الباحثين في اختصاصات من غير اللّسانيات، مع الألسنة الطبيعية تعاملا معياريا في إطار نقد مكتسبات النظريات التي اشتغلوا بها أو النّظر في مدى قدرة اللسان على تلبية حاجاتهم من المصطلحات العلمية التي لا غنى عنها في كلّ حقل

معرفي. وهي من الضرورات التي لا تخضع إلى تباين الآراء ولا إلى اختلاف الرؤى والمواقف ولا يتولد عنها الرأي والرأي المخالف.

وقد يتجلى سؤال القيمة بالنسبة إلى العربية في الحكم على مدى قدرة مستعملها على توظيفها إنتاجا وكتابة وسدّ حاجاتهم التواصلية المقترنة بسياقات اجتماعية وتاريخية وفكرية. فالعربية وإن كانت نظاما من العلامات معدّلا ذاتيا يتجلى في قدرة اللفظ الواحد على الدلالة على أكثر من معنى في إطار التحكّم في اللامنتهي بالمحدود، وقدرة البنية العاملة في الدلالة على "المعنى الأول المعلوم" الذي نصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده وعلى "معنى المعنى" الذي يقتضي مجاوزة دلالة اللفظ اللغوية إلى دلالة أخرى نصل بها إلى الغرض، وفي قدرة اللفظ الواحد على التعبير عن المعنى وضده وقدرة الأعمال اللغوية على استيعاب المقامات التواصلية المتعدّدة...، فهي كباقي الألسنة الطبيعية تتيح بأبنيتها الصوتية والصرفية والمعجمية والتركيبية الدلالية لمستعملها إمكانات في التعبير عن حاجاتهم وتحقيق أغراضهم سواء تعلّق الأمر بوظيفة اللسان الاجتماعية أو وظائفه العلمية المتعلقة بنقل النظريات وترجمة المصطلحات العلمية فضلا عن وضع البرمجيات المساعدة على تعلّم اللسان وعلى الترجمة الآلية.

لقد مكّن مفهوم القيمة الباحثين من تعميق النظري في الدوافع الاجتماعية والثقافية والفكرية وغيرها من الدوافع المتحكّمة في "التعددية اللسانية" (Linguistic Pluralism) وتعميق النظري في علاقة العربية بالألسنة المتصلة بها في إطار الثنائية اللغوية. وهو ما أدى إلى ظهور أحكام قيمية في علاقة بالموضوع من قبيل مفهوم "التسامح اللغوي" (Linguistic Tolerance) في مقابل مفهوم "التعصّب اللغوي" (Language Intolerance) ومفهوم الخطاب المتحيّز (Prejudiced discourse) وهي مفاهيم معيارية ترمي إلى المحافظة على صفوية اللسان بتمييز المقبول من الاستعمالات من غير المقبول منها، وإلى فهم منزلة اللسان بما يتضمّنه من تعقيد ومن صعوبات، من الألسنة الأخرى. ولكّنها تنطوي ضمنا على قضايا تطلّ التخطيط اللغوي (Language Planning) والسياسة اللغوية (Linguistic Policy) وتتصل بتعليم العربية واستعمالها في سياقات اجتماعية وثقافية متنوّعة. وهذه القضايا تعدّى العربية إلى باقي الألسنة الطبيعية وتعبّر عن أبعادها النظرية والتطبيقية. وهي قابلة للوصف والتقييم كسائر المجالات العلمية، سواء تعلّق الأمر بالتخطيط والسياسات اللغوية أو بتعليم الألسنة للناطقين بها أو الناطقين بغيرها.

إنّ مزّة العربية باعتبارها حاملا ثقافيا وباعتبارها موضوع دراسة لسانية قد حفّزت الباحثين على التصدّي لها من زوايا مختلفة ساهمت مجتمعة في تأنيث "العربية وسؤال القيمة" وقد انبنى هذا المصنّف في جوهره على نوع من التلازم بين علمين مستقلّين تعود فيه "العربية" باعتبارها نظاما علاميا إلى "اللّسانيات" فيما تعود "القيمة" في العصر الحديث على الأقلّ إلى "علم القيم" (Axiologie) الذي يعني جيّد ما يعنيه. فليس الموضوع سهل التناول قريب المآخذ ولا هو مألوف متداول بل فيه من الجرأة العلمية ما يسمح لنا باعتباره مجازفة معرفية يُطلب فيها التحقيق في العربية من وجهة نظر معيارية قائمة على تقييم اللسان في أبعاده الاجتماعية والثقافية والدينية والعلمية...، وقد استقرّ في المباحث اللسانية الحديثة النظري في الألسنة وصفيا وتعميق النظري في مستوياتها بتحديد ما تميّزه من خصائص وما يكون من قبيل المبادئ التي تشارك فيه غيرها من الألسنة.

وإذا كانت المعرفة باللسان متوقفة على التعمق في مستوياته المختلفة بدءاً بالوحدات الدنّيا الدّالة وصولاً إلى الدّلالة وما تثيره من قضايا في علاقة بإنتاج المعنى وجهة تمكينه والاحتياط له، فإنّ سؤال القيمة قد أعاد الاعتبار للعناصر الثقافية والاجتماعية والدينية والعلمية في التعامل مع العربية وتقييمها والحكم على دورها في ظلّ التعدّد اللّهجي والتنوّع الثقافي والاختلاف الديني. وليس التعامل مع اللّسان، مهما كان اللّسان، من هذه الزوايا باليسير الهين. فأنت بإمكانك أن تتعمق في الاختصاص الواحد وأن تتعرّف إلى إطاره النّظري وإلى الفرضيات الموجهة له ولكنك غير قادر بمفردك على مجازة مختلف الاختصاصات والتعرّف على النظريات العلمية البانية لها وعلى استثمارها في تقييم لسان ما وهي مداخل لمقاربات متعدّدة ولكثّها موحّدة في التنصيص على أهميّة اللّسان في صياغة أفكارنا والتعبير عن موافقنا وانفعالاتنا وفي تعميق فهمنا للأشياء من حولنا.

تلك هي مزية هذه النّدوة فهي وإن شددت في توجيهها العام على مفهوم "القيمة" وجعلت منه إشكالية موازية أحياناً للعربية في حدّ ذاتها، فإنّ الباحثين الذين ساهموا في تأنيث هذا المصنّف لم يهملوا سياقات استعمال العربية ولا النظريات المتعلّقة بأحكام التواصل. بل إنّ المنجز في هذا السّياق قد مثّل غنماً معرفياً هاماً وصف فيه أصحابه بعض خصائص العربية بالعودة إلى مستويين من مستويات الدّراسة اللّسانية: مستوى البنية الدّلالية التداولية ومستوى البنية الصرفية التركيبية فضلاً عن اهتمام بعضهم بمفهوم "القيمة" وتعميق النّظر في أصوله غير اللّغوية وفي معانيه المعجمية الدّلالية. وقد تمكّنوا كلّ من زاوية نظره ومن تخصّصه الدّقيق، من تحقيق وصف لساني مستوفي للظواهر المدروسة دون أن يغفلوا عن كون التعامل مع العربية باعتبارها لساناً من الألسنة الطّبيعية، من المباحث الواقعة في مجال تنافس بين حقول معرفية متعدّدة وهي تمثّل بالإضافة إلى وظيفتها المساعدة على تحقيق التواصل والتفاهم والتعاون عاملاً من أهمّ العوامل المساهمة في التحكّم في بنية المجتمعات وفي بناء ثقافة موسومة بالتعدّد والتنوّع والاختلاف.